

حين ينقلب السحر على الساحر

سلوى جراح



القاسي. الماء فيه حار يكاد يغلي صيفا وبارد لا يطيق الإنسان تحمله شتاء. كيف كانت تعتنني بنفسيها، تصون كرامتها، تخفي حيضها كل شهر عن عيون جلاديها، تغتسل وتغسل أطفالها، كيف كانت تـسـكـت جوع صغارها وماذا تطعمهم، وكيف تعا لجهم، إن ألم بهم مرض من أمراض الطفولة، كيف وكيف وكيف أسئلة كثيرة انما لت على فكري وأنا اسمع وصف تلك السيدات لحياتهن في السجن، السجن الذي لم يرحم امرأة ولا شيخا ولا طفلا، بل كيف توفق بين كل هذا وعذابها اليومي في مواجهة السجن والتعذيب والصوندة والبانكة.

سأل المدعي العام إحداهن، هل أنت متأكدة أن الذي ركلك في صدرك كان برزان، هل رأيت من قبل، أجابت بكل ثقة، وهل أنا قادمة من كوكب آخر، برزان وأعرفه، قابل رح أنغشم عنه، هو هو ركلني في صدري وكسر ضلوعي، هو هو سيدي نفس البرزان هو نفس الرجل الذي يقف في المحكمة ويقول عنها، أي المحكمة، إنها «بنة زنا»، يتحدث في الشرعية وعدم الشرعية بلغته السوقية الرخيصة، هو هو بعينه سيدي، هو الذي ركل امرأه معلقة من مروحة في سقف غرفة التعذيب، ركلها بجذانه المستورد من أحدث محلات الأحذية العالمية ركلة كسرت ضلوعيها، ترى هل سمع صوت تكسر ضلوعيها، وهل تاد بشجاعته لحظتها، هل أرضت ضلوعيها المكسورة ضروره أم أشبعت رجولته، هل أحس أنه رجل مهم وهو يركل امرأه علقته أمامه كالشاة الذبيحة بلا حول ولا قوة، ألم يخطر له لحظة أن هذه المعلقة أمامه هي واحدة من الماجدات اللاتي يتحدث عنهن أخوه بلا كلل ولا ملل، كان يقول، النساء العراقيات الماجدات، عفا، هو يقصد بعضا ممن أحطن به من نساء يأتقرن بأمره ويهتفن له حين يرتدي قبـعته ويرقصن إذا استبدلها بالسـداره، ويصفقن ويهلمن إذا ظهر بالعباءة واليشماغ.

فالماجدات اللاتي كانت وسائل الإعلام لا تكف عن الحديث عنهن لسن النساء العراقيات اللاتي فقدن الولد والزوج والأخ في السجون والمقابر الجماعية والحروب التي لا تنتهي، لسن النساء اللاتي عرفن معنى الترميل والشكل والحزن، لسن النساء اللاتي وجدن أنفسهن في ظروف يصعب تخيلها لما فيها من قسوة وعذاب ومع ذلك عشن وتجاوزن وجئن يشهدن ويروين ما حدث لهن في المحكمة، لسن النساء اللاتي ربن أطفالهن رغم الفقر والعوز والظلم، لسن النساء القويوات، العظيمات، الشجاعات، النشميات، السباعيات، النساء اللاتي ربن أجيالا من العراقيين على مر السنين وتجاوزن المحن والصعوبات.

ترى ماذا يقول صدام حسين لنفسه حين يستمع لشهادة أولئك النسوة العراقيات، ماذا يدور في خلدته، هل يصبـنـه بحالة من الذهول أم الخوف، أم لعله يصل إلى أقصى حالات اليأس والقنوط فيتساءل كيف تخلى عنه حظه إلى هذا الحد فأنقلب كل شيء ضده، كل شيء حتى الماجدات.

لا شك أن محاكمة صدام حسين مع مجموعة من أعوانه من الموضوعات التي أشبعت بحثا وتعليقا ودراسة وتمحيصا، فقد تسابقت كل وسائل الإعلام على استضافة الخبراء ورجال القانون ليقولوا فيها ما طاب لهم، وعرجت على المعلقين ليلقوا عليها ما تيسر لهم، واستعانت بالباحثين ليقدموا ما استطاعوا من بحوث مستفيضة عن المحكمة وقضائياتها ومحاميتها وشرعيتها الدولية، وجالوا وصالوا في التحليل والبحث والتمحيص حتى أن بعضهم كان ينهي حديثه وتحليله على إحدى الفضائيات ليظهر بعد دقائق وهو يصرح بأرائه الدسمة على فضائية أخرى، وبين كل هذا وذاك جلس الناس يتابعون جلسات المحكمة ويتفرجون على صدام حسين في دوره الجديد بعد أن ظل على مدى خمسة وثلاثين عاما يمثل دورا واحدا لا يتغير، دور البطل القائد المعجز الذي يطلق البندقية كما يطلق المسدس بأصبع واحد، ويرتدي كل يوم زيا جديدا فريدا.

أقول لكم الحق حين بدأت جلسات المحكمة كنت أتسمر أمام الشاشة لأشاهد التاريخ يصنع أمامي، ثم بدأ حماسي يفتر تدريجيا من الإطالة والتأجيل والكلام المعاد غير المفيد، وفجأة حدث ما لم أكن أتوقعه، عدت أتسمر أمام الشاشة استمع بصمت لشهادة سيدات عراقيات من الدجيل، سيدات يروين أحداثا لو تخيلنا تفاصيلها لغصنا في بئر لا قرار له من الحزن والأسى، نساء أخرجن من دورهن إلى السجون من دون ذنب، هذه امرأه ذاقته مرارة ذل سجون صدام تقول للقاضي من خلف الستار، سيدي عروني من ملابسي وعلقوني من البانكة، وما كنت أدري من أين تنهال علي الصونديات.

ثم تكلم، حين أنزلوني أسرع لأرتدي ملابسي وأستر عورتني ويسألها القاضي، هل كنت عارية، تجيب بخجل، نعم عارية تماما، وأخرى تضيف، دخل برزان فرأني معلقة من البانكة، ركلني برجله في صدري، أنكسرت ضلوعي وبقيت أياما لا أستطيع أن أتنفس، ويسألها القاضي، ركلك في صدرك، وماذا كنت ترتدين، تجيب، كنت عارية يا سيدي.

عارية، امرأه عارية بين الوحوش، امرأه يهان جسدها لتهان كرامتها، امرأه تلسع بالسياط وتساق إلى السجن مع أطفالها، طفلة رضية عمرها خمسون يوما وطفل لم يتجاوز السنة إلا بقليل، امرأه في سجن بلا قوانين تحكمه شريعة الغاب، سجن لا يعرف القانون عليه معنى كلمة حقوق أو كلمة إنسان وبالتالي يسخرون من دمج الكلمتين في جملة واحدة، والنتيجة نساء يقضين شهورا بل وسنين في هذا المكان، ماذا كن يفعلن، كيف كانت الواحدة منهن تعود لتحتضن طفلها بعد أن ينزلها جلا دوها من البانكة، كيف كانت تلملم فتات كرامتها لتتنظر في عيني طفلها، بل كيف كانت تعتنني بـطفـلها في هذا المكان